



السيرة الذاتية والرواية، الميثاق والحدود

أ/ليلي رحمانية

جامعة سوق أهراس

الملخص:

من أساسيات تأليف حكاية متخيلة: بناء عالم متخيل، اعتماد السرد بإيجاز، وخلق حبكة، أما أبرز ما تقوم عليه الحكاية الواقعية هو استعادة العالم الحقيقي الذي ترعرعت فيه الشخصية، ومحاولة التبسيط قدر الإمكان أثناء سرد أهم الأحداث، أما الحبكة فلا بد من أن تعمل على كشف تفاصيل الشخصية وتعرية واقعها وكشف تاريخها المجمل، فالسرد الحقيقي لا يعتمد إلى تقديم عمل فني راق فيصبح السرد القالب الذي يسوغ الكم المعرفي الذي يوظفه المؤلف، وفي الحكاية المتخيلة يتفاعل كل من المعرفي والجمالي ليقدم الصورة التي يريد المؤلف أن يخرج فيها عمله، فالعمل مرآة المؤلف ولسانه.

الكلمات المفتاحية: الرواية السير ذاتية، الواقعي، المتخيل، الميثاق.

Résumé:

Parmi les bases de la paternité d'une tale imaginaire : la création d'un monde imaginaire, la reliance sur la narration avec brièveté, et la création d'une intrigue, tandis que la tale realiste est fondée principalement sur la restauration du monde réel dans lequel la personnalité a grandi, et essayer de simplifier autant que possible pendant la narration des principaux événements, mais l'intrigue doit travailler sur la révélation des détails de la personnalité et l'exhibition de sa réalité et la révélation de son histoire orné, puisque la vraie narration ne vise pas à fournir une œuvre d'art sophistiqués pour devenir le moule qui rationalisé la quantité cognitive utilisée par l'auteur, et dans la tale imaginaire la cognition et l'esthétisme interagissent pour donner l'image visée par l'auteur dans son travail, car le travail est le miroir de l'auteur et sa langue

*** **

1-إنشائية السيرة الذاتية:

تعد السيرة الذاتية جنساً أدبياً مستقلاً، تقوم على الكتابة "لإثارة القراء وإمتاعهم بمغامرات وقصص من صلب الواقع" (1) نجده كغيره من الأجناس السردية الأخرى يتميز بطريقة خاصة في إنشائيته، لذا كان علينا محاولة البحث في أبرز الخصائص الفنية التي تميزه عن غيره وتخلق له هذه الاستقلالية.

قدم جورج ماي كتابه الموسوم بـ "السيرة الذاتية" وتطرق فيه إلى علاقة السيرة الذاتية بغيرها من الأجناس الأدبية القريبة منها ك: المذكرات وكتب الواقع واليوميات الخاصة والسيرة والرواية. كما عرج على أهم العناصر التي استعارتها السيرة الذاتية من هذه الأجناس القريبة وغيرها، لذا كان بإمكاننا تجاوز كل هذه النقاط التي فصل فيها جورج ماي في كتابه، حتى نتفرغ إلى محاولة تحديد أبرز عناصر الإنشائية في كتابة السيرة الذاتية.

"إنَّ السَّيْرَةَ الدَّائِيَّةَ لَيْسَتْ إِلَّا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ السَّردِ. وَكُلُّ أَشْكَالِ السَّردِ، لِلسَّيْرَةِ الدَّائِيَّةِ مُؤَلَّفٌ يَكْتُبُهَا وَسَارِدٌ يَسْرُدُهَا وَقَارِئٌ فَضُولِيٌّ يَقْرُؤُهَا. ثَمَّةَ مَقَامٍ سَرْدِيٍّ وَمَقَامٍ كِتَابِيٍّ وَمَا تَمَيَّزَ بِهِ السَّيْرَةُ الدَّائِيَّةُ هُوَ هَذَا الِاتِّبَاسُ الْقَائِمُ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ. فَالسَّارِدُ نَظَرِيًّا لَيْسَ كَانِنًا وَرَقِيًّا مِنْ صَنَعِ الْمُؤَلَّفِ بَلْ كَانِنٌ أَنْطُولُوجِي حَقِيقِيٌّ هُوَ الْمُؤَلَّفُ ذَاتَهُ، وَالْقَارِئُ لَيْسَ قَارِئًا مَفْتَرِضًا يَخَاطِبُهُ السَّارِدُ بَلْ هُوَ قَارِئٌ حَقِيقِيٌّ يَخَاطِبُهُ الْمُؤَلَّفُ يَبْرُرُ لَهُ حَيَاتِهِ كَمَا أَسْلَفْنَا أَوْ يَعْرِضُ عَلَيْهِ شَهَادَةً أَوْ يَعْتَرِفُ لَهُ بِأَخْطَاءِ كَانٍ قَدْ اقْتَرَفَهَا فِي حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ. وَلَكِنْ هَذَا الْمُؤَلَّفُ يَتَحَوَّلُ إِلَى سَارِدٍ لِأَنَّهُ سَيَخْضَعُ مَرْوِيَّاتِهِ لِمُقْتَضِيَّاتِ الْفَنِّ وَالْكِتَابَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَخَاطَبِهِ وَبِالتَّالِي فَنَحْنُ فِي السَّيْرَةِ الدَّائِيَّةِ إِزَاءَ مَقَامَيْنِ مُتَطَابِقَيْنِ: مَقَامِ السَّردِ وَمَقَامِ الْكِتَابَةِ.." (2)

وعليه فإننا نقف أمام إشكال يطرح نفسه بقوة، ما هي النقاط التي يتجلى فيها صوت السارد في السيرة الذاتية ؟

السيرة بوصفها شكلاً سردياً يكتبها كاتب ويرويها راو، تكون فيها شخصية رئيسية تقوم بخلق الأحداث، من هذا المنطلق يمكن القول إن كل حكاية تعتمد حبكة الأحداث انطلاقاً من الشخصية الرئيسية التي نتبع سيرتها، ولا يكون هناك فرق إذا ما كانت الشخصية متخيلة، لأن السيرة أيضاً حينئذ تأخذ شيئاً من الخيال .

من أساسيات تأليف حكاية متخيلة: بناء عالم متخيل، اعتماد السرد بإيجاز، وخلق حبكة، أما أبرز ما تقوم عليه الحكاية الواقعية هو استعادة العالم الحقيقي الذي ترعرعت فيه الشخصية، ومحاولة التبسيط قدر الإمكان أثناء سرد أهم الأحداث، أما الحبكة فلا بد من أن تعمل على كشف تفاصيل الشخصية وتعريه واقعها وكشف تاريخها المجمل، فالسرد الحقيقي لا يعتمد إلى تقديم عمل فني راق بل يسعى إلى إخراج عمل تاريخي تكون فيه الأولوية للمضمون على حساب الشكل وتقدم فيه المعرفة على الفن والحقيقة على الخيال (3).

إن السرد هنا يصبح هو القالب الذي يسوغ الكم المعرفي الذي يوظفه المؤلف، وفي الحكاية المتخيلة يتفاعل كل من المعرفي والجمالي ليقدم الصورة التي يريد المؤلف أن يخرج فيها عمله، فالعمل مرآة المؤلف ولسانه.

2- ميثاق السيرة الذاتية و ميثاق الرواية :

عمل "جورج ماي" على تحديد ماهية العلاقة بين السيرة والرواية، فذهب إلى أن السيرة استفادت إلى حد كبير من الأساليب التي أشاعتها الرواية بعد أن طورتها ووصلت بها إلى صورة ناضجة، وكانت نواتها السرد المباشر الذي يعتمد أساساً على ضمير المتكلم، وهذا الضمير عرفناه في المذكرات وسلطت عليه الرواية الضوء ليأخذ أشكالاً عديدة ويستخدم في أكثر من موقع بثناء واضح ونضج ملموس، فكانت السيرة هي المستفيد الأول من هذا التطور الناضج، حيث يتضح لنا عمق العلاقة والامتزاج بين الجنسين، والترابط الكبير يتجلى أكثر في العدد الكبير للروايات التي أخذت طريق السيرة في تقديم أحداث شخصية، والاختلاف يكمن في ما إذا كانت الشخصية حقيقية أو متخيلة، أو أنها شخصية الكاتب ذاته مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصية الاختلاف (4).

في "أوراق" نجد تقارباً كبيراً بين الشخصية البطلة إدريس وشخصية المؤلف "العروي"، هذا ما يعطينا الحق في اعتبار أن إدريس هو قناع تخفي وراءه العروي، وفي هذا يتجلى الجانب السير ذاتي للمؤلف في صورة روائية تعتمد طريقة جديدة تتميز بالمؤلف وتضمن له الاختلاف، فنجدته يتحدث بضمير المتكلم فيقول "كنت أجهل ما كتب إدريس عن نفسه، فتخيلت أن سبب مأساته كان خيانة مارية،

تصورت أنه حاول في كل عمل قام به أن ينساها." (5) فهو يتخيل ويتصور، وفي هذا المجال الخيالي يكتب نصه انطلاقاً من معطيات حيّة حقيقية.

هناك ترابط وثيق بين السيرة والرواية، سواء من جانب المكونات الأجناسية لكل منهما (الشخصيات، الفضاء...) أو حتى المكونات الجمالية (طريقة كتابة النص)، "فصلة روايات الشخصية الواحدة تجد نفسها، شديدة القرب إلى السيرة، فكلاهما يعنى بشخصية مركزية. في الرواية نجد حدثاً يؤثر أفعال الشخصيات، أو شخصيات متضافرة في علاقتها ترفد الحدث بأفعالها، فيما السيرة تقتزن بحياة فرد، وعبر منظوره الشخصي تتشكل الحيات الأخرى. وصيغة السرد المباشر إنما هي إحدى الخصائص التي تصلهما. ففي نهاية الأمر، لا يمكن لأحد أن يخرق قناعات المتلقي، في أن الرواية عمل متخيل، والسيرة وثيقة لها بعد واقعي، ذلك الأفق بما يرتبه من هواجس، يوجه سير القراءة إلى هدف محدد في أثناء قراءة كل من الرواية والسيرة". (6)

يحمل المتلقي مجموعة أفكار حول مفهومه للقراءة، هذا ما يجعله يمتزج مع عالم الرواية الخيالي، ويدفعه في ذات الوقت إلى البحث في نسبة تطابق حياة الكاتب مع ما كتبه في السيرة، فيكون المتلقي قد وقف أمام أساليب عديدة تجسد محاولات الكاتب لتضليله قدر الإمكان وتشغيل فكره ما يجذبه للقراءة أكثر فأكثر وينمي فيه فضول البحث عن الحقيقة المغيبة بالإبداع المتفاوت في الدرجات والتقنيات. في أوراق نجد حواراً قائماً بين المؤلف وشعيب، فنصل إلى درجة الخلط بين المتحدثين الثلاث ويصبح من الصعوبة الفصل بينهم، نجد مثلاً المؤلف يقدم قطعة لإدريس ثم يعقب عليها في حوار مع شعيب فيقول:

- أقوال تجرح العواطف!
- قد سمعتها من فم إدريس بحضور آخرين.
- نسمع أشياء ونتحملها في ظروف ثم نضيق بها في ظروف أخرى. رغم هذا لم أغير شيئاً.
- سوى بعض العبارات

- نعم استوحى إدريس عبارات من عنوان رواية ألان باطن ابك على البلد الحبيب....."(7)

أرجع "جورج ماي" أساس التحكم في نسق العلاقة بين السيرة والرواية إلى نسبة توظيف الكاتب لتجاربه الشخصية الحقيقية، فوضع لهذه العلاقة سلماً افتراضياً من الألوان الواصلة بين الرواية والسيرة كما في تدرج طيف الأضواء من البنفسجي إلى الأحمر، ففي رقعة البنفسجي تتموقع الروايات التي يضعف فيها حضور شخصية الأديب وهو ما يسمى بالروايات التاريخية ك:الفرسان الثلاثة والحرب والسلام، كما تستوعب هذه الرقعة كل من الروايات النفسية والروايات الأخلاقية والروايات الشعرية.

بالنسبة للرقعة الثانية فهي ذات اللون النيلي ونجد فيها الروايات الشخصية أو السيرية التي مدارها على تطور شخصية رئيسية، وهذه الشخصية الرئيسية بعيدة كلياً عن شخصية الكاتب ولا تمنحنا فرصة التخمين في تتطابقها معه، ومثال ذلك "أوجيني قراندي"، أما الرقعة الثالثة زرقاء اللون تستوعب الروايات السير ذاتية المكتوبة بضمير الغائب، ومدارها على شخصية رئيسية ولكنها بخلاف روايات الرقعة السابقة، تكون الشخصية الرئيسية صورة للكاتب تكاد تتطابق معه، ومثال ذلك رواية "مدام بوفاري" فالشبه بين "إيما بوفاري" و"فلوبير" كبير جداً كما أنه اعترف بذلك. أم الرقعة الرابعة ذات اللون الأخضر فيمكن أن نضع فيها رواية السيرة الذاتية المكتوبة بضمير المتكلم، ومثالها "اعترافات فتى العصر"، وهذا النوع من القص يتلاءم مع القص الارتجاعي كما مع اليوميات، وفي الرقعة الخامسة ذات اللون الأصفر نجد السيرة الذاتية الروائية، التي لا تنتسب إلى السيرة الذاتية لا الرواية، وإن شأها لا محال قسط من الخيال الكبير، وهذا ما يتجسد في كتابات "رستيف" و"مارسيل بانيول".(8)

أما الرقعة السادسة ذات اللون البرتقالي نجد فيها السيرة الذاتية التي يستخدم فيها كاتبها اسماً مستعاراً، وتشمل السيرة الذاتية التي اختار أصحابها التخفي وراء اسم مستعار، ومثال هذا اللون رباعية "نوزيوار" لكاتبها "أناطول فرانس" والفرق بينها وبين الرواية السيرة الذاتية هو أن الكاتب في الأولى يصرح

بأنها سيرة ذاتية، وفي الثانية بأنها رواية، وهذا التصريح هو ما يسميه فليب لوجون "الميثاق السير ذاتي". (9)

آخر رقعة هي الرقعة السابعة صاحبة اللون الأحمر والتي نجد فيها السيرة الذاتية التي يصرح أصحابها بأسمائهم الحقيقية، وهنا يجد القارئ الذي يعرف مسبقا كاتب السيرة الذاتية أن الأحداث الواردة في السيرة مطابقة تماما لذكريات الكاتب. (10)

لخص "عبد الله إبراهيم" رقع الألوان المتدرجة التي رمز بها جورج ماي إلى مسار التعبير السرد من الروايات التاريخية، إذ تتوافر درجة الموضوعية بعيدا عن ذات المؤلف وصولا إلى السيرة الذاتية الصريحة بالأفعال والأسماء في الجدول التالي: (11)

اللون	البنفسجي	النيلي	الأزرق	الأخضر	الأصفر	البرتقالي	الأحمر
نوع الكتابة	الروايات التاريخية	الروايات الشخصية	روايات السيرة	روايات السيرة	السيرة الذاتية	السيرة الذاتية	السيرة الذاتية
المركزية	المركزية	بضمير	بضمير	الروائية	باسم	باسم	
الغائب	الغائب	المتكلم		مستعار	صريح		

نلاحظ في هذا المسار وجود حضور وغياب مجموعة من العناصر التي تتحكم في تسمية كل نوع ينضوي تحت لون من الألوان، فنلمس تدرجا واضحا في حضور الخصائص الذاتية التي تبلغ الذروة في السيرة الذاتية التي يصرح فيها صاحبها باسمه، ونجد استبعادا لأساليب السرد الغير مباشر واستبدالها بالأساليب السردية المباشرة والتي تتولى الكشف عن الذات الكاتبة باعتبارها النواة التي تنبع منها الأحداث، كما نقف على أهم نقاط التداخل بين السيرة والرواية وهذا ما يتجلى في كل من الرقعة الزرقاء والخضراء والصفراء، ويتجلى لنا انفصالهما التام بالتحديد بين كل من الرقعتين الخضراء والصفراء، في الأولى نجد هيمنة الرواية أما في الثانية تهيمن السيرة الذاتية الروائية ولا يحضر من الرواية إلا ما استعاره النوع المهيمن منها، وفي هذا تستعير السيرة الذاتية الروائية من الرواية ومن السيرة الذاتية ما يحقق لها شرعية التأسيس في ذات نقطة الفصل بين كل من السيرة الذاتية والرواية .

وظف العروى في أوراقه جزءا كبيرا من حياته الفكرية والفلسفية والمعلوماتية، وكثيرا من الحوادث التاريخية التي عاشها على الصعيد الشخصي أو عاشها جيله، فقد اعتمد أساسا على الجانب الحقيقي المعاش، كما أن هدفه لم ينحصر في تخليد ذاته بذكر الأشياء الشخصية التي مرت عليه، بل نجد هدفه فكريا رغب في إيصال أفكاره إلى المتلقي العربي انطلاقا من التمثيل بأحداث عاشها المتلقي في حد ذاته، فسيرته لم تعتمد على التفاصيل اليومية المعاشة، بل استندت إلى جملة الأفكار التي يرغب من خلالها زرع الوعي وبذور التغيير والتساؤل، فهو مفكر ومؤرخ وفيلسوف، وهذه المجالات المختلفة جمعها في نص سيرى روائي وازى فيه بين الجانب الحقيقي والجانب الخيالي ليصل إلى القارئ في صورة مستساغة قريبة منه لتؤدي الهدف المرجو من ورائها.

وضع "فليب لوجون" حد السيرة الذاتية كالآتي: "حكي استيعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة". (12) فالسيرة الذاتية تتحقق بتطابق كل من المؤلف والراوي والشخصية، وهذا التطابق يولد لنا شكلين، الأول يتحقق بالتصريح الصريح بأن النص سيرة ذاتية أما الثاني فيكون بتطابق الراوي والشخصية في كل شيء (الحوادث) أو يتطابق اسم الشخصية مع اسم الراوي المصرح به على الغلاف.

تعتبر هاتان الطريقتان هما شكلا التطابق كما يجمع بينهما في حالات كثيرة، بهذا التصريح يخلق "ميثاق السيرة الذاتية" هنا يصبح من الضروري الإعلان عن "الميثاق الروائي" الذي يتمثل في العقد الذي يوجه القارئ لاعتبار النص رواية، وهذا الأخير وضع له "لوجون" مظهرين الأول عدم التطابق بين كل من المؤلف والشخصية في الاسم، أما الثاني هو تصريح بالتخييل ويكون في الغالب بوضع عنوان رواية ما يحيل حتما على اعتبار النص نصا خياليا. (13)

يوجد تطابق في كثير من الأمور بين كل من العروى وإدريس، لكن لا يمكننا الجزم بأن إدريس هو العروى نفسه، إذ أن العروى يقدم حياة جيل بأكمله، جيل عاش الأحداث ذاتها، جيل درس في المغرب وبعد أن انتقل إلى باريس وتعرف على الأجواء نفسها، فهو حديث عن جملة من الأفراد المغاربة الذين مثلوا الطبقة

المثقفة في تلك الحقبة، فالتطابق موجود ويصل إلى حد أن المؤلف يتحدث عن إدريس فيصف أدق التفاصيل وكأنه يتحدث عن ذاته هو، على اعتبار أنها تفاصيل شخصية لا يمكن أن يصفها إلا من عاشها، ولكن يبقى أن أوراق إدريس هي من تتيح للمؤلف التعبير بدقة، وكأن الأوراق هنا هي الحجة التي يحتج بها المؤلف ويتخفى وراءها.

إن عدم تحقق التطابق بين الميثاقين لا يعني بالضرورة تعارضهما، أو وضع كل من السيرة الذاتية والرواية في موضع التضاد السردى، بل يسيران في خطين متوازيين يحتملان التداخل أحيانا، "ففي كل أثر أدبي سردي ثمة درجة من حضور العنصر الذاتي، سواء تم الأمر على مستوى الرؤية والمنظور أو تم على مستوى الصيغة والأسلوب، أو تم على مستوى مكونات المتن السردى، ولكن من المفيد التأكيد الآن بعدم التطابق الكامل بين السيرة الذاتية والرواية، دون القول بالتعارض، فلتكن السيرة الذاتية "خبرا" بالمعنى البلاغي، بما يفهم إمكانية التدقيق فيما وراء النص، ولتكن الرواية نوعا من "الإنشاء" بالمعنى نفسه، إن الإمكانية المنطقية لدمجها تفضي إلى دمج "الخبر" بـ "الإنشاء" وإنتاج نص خبر-إنشائي، هو "السيرة الروائية" (14).

فالسيرة الذاتية إذن جنس مستقل عن الرواية، ولكن هذا لا يعني نفىها تماما عن الرواية، بل هناك جنس يخلق من تمفصلهما وهو السيرة الذاتية الروائية، وهذا الخلق إنما هو في الأصل أخذ جزء من عناصر كل من الجنسين المستقلين لنشيد به عالما وسطا بينهما هو السيرة الذاتية الروائية.

3- الواقعي و المتخيل في "أوراق":

يكون في عملية السرد اتفاق بين المؤلف والقارئ على أن المؤلف لا يقدم كل شيء وعلى القارئ أن يملأ الفراغات المتروكة له، باعتماده على خياله وتجاربه الخاصة، فيتخيل مثلا شكل الشخصية وهيئة المكان... الخ فالقارئ هنا يصبح كالمخرج السينمائي الذي يصنع فلماً، من هذا التعاون بين القارئ والمؤلف ينتج لنا حكاية كاملة، وهذا يعتبر الحد الأدنى المشترك بينهما وكل تجاوز له يدخل فيه

الاختلاف حول ما إذا كانت الحكاية حقيقة أم خيالا، ذلك أن لكل نوع اتفاقا خاصا به في جانب السرد.⁽¹⁵⁾

في الرواية، يقدم المؤلف حكاية خيالية للقارئ حتى يحقق له المتعة، في المقابل يتظاهر القارئ بتصديقه للحكاية، فلا يهتم المؤلف بالمبالغة في خياله حتى لو وصل إلى حدود الكذب، فهذا هو الاتفاق الوارد في الرواية بين القارئ والمؤلف، والانتقال من الرواية إلى أحد أنواعها نضيف فقط الشرط الخاص بالنوع، ففي الرواية البوليسية مثلا يضيف المؤلف علة تعهده السابق عنصر العتب بالمعطيات التي تكشف هوية المجرم، وهذا ما يخلق للقارئ مجال البحث والاكتشاف، وهذا الاتفاق لا يوثق في كتابة في النص بل يكون ضمنيا يتحقق حالما يشرع القارئ في قراءة النص .

بالنسبة للسيرة، يتعهد المؤلف بتقديم صورة صادقة وصحيحة عن حقيقة الحياة، وتعده هذا يوثق خطيا في النص، وفي حالة ما إذا تم خارج حدود النص كالعبارات وغيرها " اكتسب القيمة المعنوية والقانونية التي يتمتع بها الميثاق الحقيقي، لأن عتبات النص لا تنتهي إلى المتخيل ولا يرويها الراوي بل هي حديث المؤلف للقارئ، ويتضمن ميثاق السيرة عادة إشارة تحدد طريقة التعامل مع النص، وتوجه قراءة القارئ له وتبين الدوافع الشخصية والعامة التي حملت المؤلف على تأليفه ".⁽¹⁶⁾

نجد في نص "أوراق" أن العروي تعهد بتقديم صورة حقيقية لحياة إدريس، فقد سبق وأن قدم لنا جزءا كبيرا من حياته في أعماله السابقة، هذا ما صرح به بداية من العنوان الفرعي "سيرة إدريس الذهنية" هي عبارة تنم عن التزام واضح لكتابة الجانب الحقيقي لشخصية إدريس بل وقد حدد الجزئية التي ركز عليها في نصه "الذهنية"، وصرح العروي بأن نصه يتحدث عن سيرة شخصية إدريس، وهذا يعد توجيها منه للقارئ يحدد به منذ البداية طريقة التعامل مع النص، كما يبرز في مقدمة النص سبب اختياره لشخصية إدريس، يقول: "عندما خامرتني فكرة وصف الجو الثقافي الذي عاش فيه الجيل الذي أنتهي إليه وجدت نفسي أمام عمل نصف منجز... الجانب الواقعي من حياته معروف مسبقا"⁽¹⁷⁾، والمصرح به هو وصف الجو الثقافي لجيل العروي. فما الغرض من تقديم هذا الوصف؟ قد

تكون غاية أيديولوجية أراد منها العروي محاكمة هذا الجيل الذي حكم المغرب بعد الاستقلال مباشرة، وشغل المناصب الحساسة في الدولة، فهو جيل نعته بالخمول والكسل، يقول: "كان جل الطلبة في دار المغرب (...)، لا يتقيدون بحضور الدروس. يستيقظون متأخرين (...)" هذه الجماعة المعروفة بخمولها وحدة لسانها (...)، هي التي ستملاً دواوين الوزراء في السنين الأولى من الاستقلال" (18).

وقد يكون الغرض فنيا خالصا أراد منه العروي خلق شكل جديد يستوعب مخلفات إدريس ليقدّمها في شكل لائق وغير معهود، أو كما عبر عنه في نصه: "كان يفكر رغما عنه أحيانا، في الشكل الملائم لكل تجربة، بل في الشكل الذي يوحد في مجال الوعي عواطف متعددة" (19)، والشكل الذي يمكن أن يستوعب مع طبيعة المجتمع المغربي المشتت، وفي هذا السياق استفاد العروي من تقنية الكتابة الروائية ووظف كل ما له علاقة بالمتخيل والبناء الروائي. ليعيد تمثيل المجتمع المغربي الذي ينتهي إليه إدريس بكل ما يمور فيه من تناقضات مرحلي الاستعمار والاستقلال. تعد العلاقة بين المؤلف والراوي في السرد، علاقة جدلية تقوم على ما يمكن أن يكون مشتركا بينهما من الاهتمامات التي قد ينعكس من خلال ما يتعلق بسيرة الكاتب وتجاربه الشخصية والفكرية، وإن لم تجسد في "أوراق" إلا أنها متجسدة في نصوص أخرى. نحاول تقديمها في عُجالة، فقد درسها فليب لوجون في كتابه "السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي" وحاول تلخيصها في خمس حالات تؤدي إلى خمس أنواع من السرد:

- الحكاية الذاتية: تتميز بالتطابق بين الراوي والشخصية دون المؤلف.
- الحكاية الغيرية: تتميز بغياب كل تطابق بين المؤلف والراوي والشخصية.
- السيرة الذاتية: تتميز بالتطابق بين المؤلف والراوي والشخصية.
- السيرة الغيرية: تتميز بالتطابق بين المؤلف والراوي دون الشخصية.
- السيرة الذاتية الغيرية: تتميز بالتطابق بين المؤلف والشخصية دون الراوي (20)

مما سبق يمكن الوصول إلى أن العلاقة التي تجمع بين كل من المؤلف والراوي والشخصية تقودنا إلى مسارين إما إلى الحكاية المتخيلة أو إلى السيرة. يندمج الراوي بالمؤلف في كل من السيرة الذاتية والغيرية حتى يشكلان هوية واحدة. السيرة الذاتية الغيرية تنجح إلى الخيال ذلك أن كاتبها حينما ينسبها إلى كاتب آخر يصبح وكأنه نقلها من الحقيقي إلى الخيالي، وهنا يتحول السرد إلى تخيل. وقد يجتمع المدلول الحقيقي المتمثل في الذات الكاتبة والمدلول الخيالي وهو ما تنسبه الذات الكاتبة لنفسها من حوادث حقيقية أو مختلفة، واقعية أم خرافية، وهذا الاختلاط ينزع صفة الصدق كلياً عن النص، وهذا النوع الهجين يسمى التخييل الذاتي والذي قارن فليب غسباريني بنوع سردي آخر هو الخيال العلمي فوجد أن "نسبة التخييل الذاتي إلى الذات المبدعة كنسبة الخيال العلمي إلى العلم والتقنية" (21).

يمكن القول إن التخييل الذاتي يتماس إلى حد كبير مع السيرة الذاتية الروائية حكاية متخيلة وليست سيرة، فالمؤلف لا يلتزم بالصدق في ما يورده من أحداث ومواقف ومشاعر وفضاءات، بل نجده يخلط بين الحقيقي والمتخيّل، وقد يلجأ المؤلف أحياناً إلى أساليب أخرى كأن يكتب على كتابه كلمة رواية وفي المقابلات يصرح بأن عمله سيرة ذاتية مقنعة، وقد يستخدم المؤلف طرقاً أخرى لإيهام القارئ والإيقاع به في غياهب الضياع. وقد يمنح المؤلف للبطل اسمه ويحمّله كل تفاصيله الشخصية وكل معارفه ويضعه في نفس البيئة التي يعيشها: المحيط العائلي، وظيفته، عنوانه الشخصي،... ثم يطلق العنان إلى خياله ويخلق حوادث ومواقف غريبة عن حياته كلياً.

تأخذ "أوراق" من الطريقة السابقة شيئاً كثيراً، إذ أننا نجد تطابقاً واضحاً بين كل من إدريس والعروي في شتى المجالات، فالمسار الدراسي نفسه، كما وأن المناطق التي سافر إليها العروي هي نفسها التي سافر إليها إدريس: الصديقية، مراكش، باريس،... وغيرها من الأماكن، إضافة إلى شخصيات عديدة ذكرت في النص وهي موجودة فعلياً في الواقع كعلال الفاسي. فالعروي انطلق من حوادث حقيقية حدثت معه وأضاف إليها حقائق تاريخية تخص العالم العربي والغربي، وضمّنها عنصر الخيال الذي أعطى النص نكهة فنية وأصبغه بصبغة الرواية،

وقد يذهب المؤلف إلى جر القارئ حتى يقرأ السيرة الذاتية على أنها نص روائي كما فعل محمد برادة في كتابه "حيوات متجاوزة"، حين تلاعب بأطراف السرد مستخدماً أطراف جديدة تفصل بين المؤلف والنص، ففضلاً عن الراوي هناك الكاتب المفترض والسارد والمسرود له، هذه الكثرة في الأصوات ضاعفت حركة النص، وولدت لدى القارئ أشكالاً من المتعة الفنية، ولكنها حجبت موقع المؤلف الحقيقي وصلته بالمسرود وهذا هو الهدف المرجو من هذا الزحام الصوتي.

ما سبق ذكره يؤكد فكرة الضمانات المعلنة التي وجب على كاتب السيرة تقديمها والالتزام بها لأنها تعد الخط الفاصل بين التخيل الذاتي والسيرة الذاتية. اعتمد العروي في نصه على توظيف الجانبين الحقيقي والخيالي، حيث نجد أنه حافظ على وجود الحقيقي وقدمه في قالب الخيالي، إذ: "شيدت بنية مؤلف "أوراق" على شكل مناظرة يحتدم فيها الجدل والنقاش بين السارد وشعيب حول محتويات الصحائف الإدرسية (يوميات، وعروض، ومقالات، وخواطر، ورسائل) يؤولها السارد بطريقة ليبرالية، ويضفي عليها شعيب نفحات ومسحات سلفية. استتبع الهاجس التجريبي المتبع في "أوراق" التركيز على البعد التحليلي (تتبع المسار الفكري والعاطفي لإدريس) وإغفال ما يتعلق بالجانب الوقائي (مغامرات إدريس وحياته الخاصة)". (22) حيث ركز العروي على الجانب الفكري والعاطفي وصاغهما بطريقة خيالية مستفيداً في ذلك من طريقة كتابة الرواية ومعتماً أساساً على ما هو حقيقي.

قدم العروي في أوراقه من الواقعي النزر الكثير، فقد وضح تكون المسار الفكري لإدريس انطلاقاً من ثقافة الآخر، وهذا أمر شائع في مجتمعاتنا العربية الآن، وكأن الآخر أصبح هو المصدر الذي تنبع منه المعرفة والثقافة، وقد أصبح إدريس واعياً بعدما اطلع على الفلسفة الماركسية، والنشوية والديكارتية، والوجودية وغيرها من الفلسفات التي تحكمته في نظرته للعالم، لم يكن إدريس كباقي الطلبة بل كانت حياته تسير على نمط الحرية في البحث بنهم والتشبع بكل مكونات الثقافة الغربية، فأنمر هذا الجهد شخصية ذات رصيد معرفي وفير، وصاحبة آراء واعية ورصينة فيما يخص أهم القضايا التي شكلت جدلاً واسعاً على الصعيد الفكري كقضية العلمانية والتخلف والحرية والديمقراطية... الخ، كما

وأن هذا المجتمع الغربي هو الذي ارتقى بذوق إدريس وسما به إلى حدود النقد البناء والإبداع الفني الرفيع ككتابة القصة ومشاهدة الأفلام وامتلاك القدرة على نقدها بعد فهمها واستيعاب حمولاتها، وفي قلب باريس أحس إدريس بهويته وكيونته، شعر بمعنى الإسلام ومعنى أنه مسلم "بدأ يفهم معنى قوله: أنا مسلم" (23) وعى بأنه مغربي الأصل والمنبت، بعد الاستقلال عاد إلى أرض الوطن محملاً بكل ما هو غربي، فأصابه إحباط شديد بعدما شاهد تناقضاً كبيراً بين المجتمعين "رأى الشعب فقيراً جاهلاً مريضاً. رأى تلك الآفات والعاهات (...). وبالمناسبة أذكر أننا نحن الذاهيين إلى فرنسا والعائدين منها كنا ضحية سراب. ظننا أيام الحماية أن كل ما يوجد على أرض الوطن ملك لنا فتخيلنا المغرب أكثر تقدماً مما كان في الحقيقة. وعند الاستقلال أدركنا بغتة أن كل ما كنا نشاهد هو ملك لفرنسا والفرنسيين وأننا حتى لو أردنا اقتناؤه لما استطعنا ذلك إلا بعد زمن طويل. بدت لنا الهوة السحيقة بين الواقع والأمني" (24) وهو الأمر الذي دفع به إلى اختيار العزلة كوسيلة يحقق بها نوعاً من الارتياح النفسي بدل الضغط الذي تمارسه عليه التجمعات.

نجد في نص أوراق ذكرنا لحوادث تاريخية كثيرة، وهذا ما عزز الجانب الحقيقي في النص إذ أن التاريخ كما نعلم هو منبع الحقيقة، فالسيرة تلتقي مع التاريخ في حرص كل منها على نقل الحقيقة التي ارتبطت بالماضي، فكتاب السيرة الذاتية يجمع بين التأريخ أو النقل الصحافي، وهنا يجمع بين تقديمه لحقائق ذاتية خاصة به وبين نقل للواقع المعاش آنذاك. "في حين أن الآخرين يعرضون ما وقع لأشخاص آخرين، وفي السياق نفسه، ليس المؤرخ (أو كاتب السيرة الذاتية) مُجمّعاً للأحداث أو متذوقاً للجمال. فهو لم يهتم لا بالجمال ولا بالندرة قطعاً. فما يهيمه بالدرجة الأولى هو الحقيقة" (25). والعروي في نصه جمع بين المؤرخ والصحفي، فالرجل قبل أن يكون أديباً هو مؤرخ عرف بإمكانه من هذا المجال كما أنه اشتهر بكتابة المقالات ونشر الكتب، وكل هذا تجسد في النص الذي بين أيدينا، فالعروي جمع بين المؤرخ والصحفي، وحرص على نقل الحقيقة التي عاشها جيله والتي كان لها تأثير كبير على بلده المغرب، والهيم الأساسي في النص هو إبراز

الحقيقة والعمل على إزالة اللبس عنها، إذ أن كثيرا من الحوادث كانت لها نيات مبيتة لا يعلمها إلا من تمتع بالفهم السليم والمعرفة الواسعة.

يزخر نص أوراق بالحقيقة التي عبر عنها إدريس في أوراقه المختلفة التي كتبت في مراحل متباعدة ومتنوعة، أعاد السارد قراءتها من منظوره الشخصي ليكشف خبايا غير متوقعة و"يعلل مواقف إدريس أو ينقدها مراعيًا الظرفية التاريخية التي توطرها والمستوى الإدراكي والثقافي لصاحبها، وإذا كان السارد يؤول محتويات الأوراق بالنظر إلى توجهه الليبرالي، فإن شعيب يقرأها من منظوره السلفي" (26)، هنا يظهر لنا الجانب التخيلي في النص إذ الحقيقة موجودة في مخلفات إدريس، يبقى طريقة تقديم هذه الحقيقة والطريقة هنا هي التي تظهر لنا الجانب الفني للنص، وفي "أوراق" الجانب الفني جانبان: أما الأول فهو ما يخص "السارد"، وأما الثاني فهو "شعيب" الذي كان رفيقا للسارد طيلة مسيرته الفنية، فكانت الفكرة الواحدة تحتل تأويلين أو أكثر. وهو ما أعطاه ميزة التفرد عن غيره.

وفي سياق تقديم ما جاءت به أوراق إدريس، استعرض العروي أحداثا تاريخية كثيرة سواء عاشها إدريس وقيدها في كنانيشه أو استعرضها العروي من جانب أنه مؤلف النص، وسواء ما ذكره العروي أو ما قيده إدريس، فهذه الحوادث التاريخية حددت بدقة وقدمت بعناية فائقة من الطرفين، كما وأن البعض منها قدم مع ملابساتها وحيثياتها، فما قدم كان بمثابة الشهادة على الحدث، كما أن هذه الطريقة تدرج العمل الفني في قلب التاريخ، وتعتبره جزءا منه ومكونا أساسيا لا يمكن إسقاطه، ورغم تباين الاختصاصين والمجالين إلا أنهما يجتمعان ليقدم كتابا متميزة تقتضي البحث فيها.

اعتمد العروي على أوراق تركها إدريس فشيّد بها نصه، وكانت هذه الأوراق بمثابة السند الذي يثبت حوادث تاريخية معينة، كما أنها ساعدت المؤلف على استرجاع ما أسقطته ثقوب الذاكرة، وهذا تماما ما يحدث مع المؤرخ الذي يعتمد على وسائل عديدة لتقديم حوادث ماضية كاعتماده على الوثائق والمخطوطات والرسائل... الخ. هنا يلتقي كاتب السيرة مع المؤلف مرة أخرى ليستعينا بذات الوسيلة لتقديم الحقيقة، فالاعتماد على السندات الموثوقة يعين الكاتب -سواء كاتب السيرة أو المؤلف- على تقديم الحقيقة مع الدليل والحجة المقنعة، وهذا ما

يضمن الصدق ويضفي الشرعية على ما قدم، ويتجلى هنا امتزاج الحقيقي المدعم بالوثائق التاريخية (الحدث الفعلي) والخيالي الذي هو أسلوب إعادة تشكيل الحدث الفعلي الماضي.

اختزلت أوراق إدريس حوادث عدة في مراحل متفاوتة سواء التي عاشها أو التي ذكرها بطريقة الاسترجاع كمرحلة الطفولة: "لا يتذكر إدريس من دار أسرته إلا ما سماه خصوصية معمارية" (27) فقد خصص الجزء الأول من النص للحديث عن الجانب العائلي، وهذا الجانب كباقي جوانب النص اعتمد على الذاكرة العروية والأوراق الادريسية. على إمتداد 243 صفحة قدم العروي مسيرة طويلة عاشها إدريس وجيله، كما أنه وضع بصمته من خلال تعليقاته وهوامشه، كما نجد أنه ركز على شخصيات معينة دون غيرها، وذكر أحداثاً منتقاة وقضايا مختارة تخدم إيديولوجيته، كقضية العلمانية التي تحدث عنها بإسهاب "إن العلمانية من المسائل التي يجب أن نفكر فيها باستمرار..." (28)، كما عمل على خلق شخصيات خيالية لتدعم أفكاره وتثبتها وتساعد على إعادة بناء الماضي أهمها شخصية شعيب الذي رافقه على امتداد النص فكان الصديق والرفيق والناقد وأحد أهم عوامل تنشيط الذاكرة واستعادة الماضي، وبعض الوقائع الحقيقية المعاشة إلى جانب قليل من الشخصيات الخيالية وقليل من التعليقات والأفكار والآراء تتفاعل فيما بينها لتشكل نصاً سيرياً روائياً متميزاً يشهد لمؤلفه بالبراعة الفنية والتمكن الإبداعي.

اعتمد العروي على أوراق إدريس كسند أساسي في نصه، ثم تفنن في طريقة سردها وتقديمها، فبقدر ما قيّدته أوراق إدريس بمحتوياتها بقدر ما خلق حريته من خلال طريقة السرد، فالجانب الحقيقي الواقعي يقيد المؤلف على اعتبار وجوب الالتزام بما هو وثيقة حقيقية، وبما أن الإبداع بحاجة إلى الحرية، وجب على المبدع خلق مجال حرّ يتحرك فيه إبداعه، لذا نجده يعتمد على الخيال كأفضل طريقة تنسجم مع الوثيقة، فكان اختيار الموضوعات المتحدّث عنها أحد أبرز سمات الجانب الخيالي فهي حرية اختيار المحكيات. في "أوراق" ظهر العروي المؤرخ إلى جانب العروي المبدع ليشكلاً فنية العروي المتميزة، وعليه "نقر، إذن، بأن

السرد التاريخي ينتمي إلى الأدب في نطاق أنه يستخدم أداة النص كوسيلة لتشخيص الماضي" (29)

فنص "أوراق " هو نص تاريخي أدبي بامتياز، شخص الماضي الموثق في كنانيش إدريس في قالب أدبي فني مميز.

يتجلى الواقعي من خلال رحلة إدريس داخل المغرب وخارجها، وفعل الرحلة واقعي، سواء كان إدريس هو العروي أو أنه يمثل شخصية المثقف المغربي في تلك الحقبة، ومن خلال حقيقة الرحلة تتجلى مظاهر الواقعي: أوضاع المغرب والعالم آنذاك، طريقة تفكير النخبة لتشييد بلد ما بعد الاستقلال، حقيقة المثقف المغرب، إسقاط الأقنعة عن السلطة وإظهار المطامع السياسية والحسابات الدولية...، فقد سجل المؤلف الواقعي ونقله لنا بعد إعادة تشكيله، لكنه ليس الواقع المراد، فهو واقع لا يرتقي إلى مستوى رفيع في التفكير والانجاز، يظل على امتداد صفحات النص يجذبنا إلى قاع البلاد والعباد، فهو عالم منحط وليس العالم النموذج المرغوب فيه، فالمغاربة طالما حلموا بالاستقلال لكن مغرب الاستقلال شكل وليمة لأصحاب المطامع وتبخرت مع المطامع آمال وأحلام الشعب الذي استمات من أجل تحقيق الحرية، ومثل الجيل الأول ضحى بالنفس والمال، في مقابل الجيل الثاني الذي استفاد من الغنائم دون أن يحرك ساكنا.

الهوامش:

¹- محمد الداوي: مقال بعنوان: محكي الحياة النسائية في المغرب، من كتاب: الكتابة النسائية التخيل والتلقي، مجموعة من الكاتبات والكتاب، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط1، 2006، ص57.

²- محمد الباردي: عندما تتكلم الذات، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، البريد الإلكتروني E-mail-dam.or^{une}criv@net.sy، موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الانترنت: www.awuaru@net.sy، ص100

³- لطيف زيتوني: الرواية العربية البنية وتحولات السرد، مكتبة لبنان ناشرون، زقاق البلاط، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2012، ص51.

⁴- أنظر: جورج ماي: السيرة الذاتية تعريب: محمد القاضي وعبد الله صولا، بيت الحكمة، 1992، ص189.

5- المدونة، ص234



- 6- عبد الله إبراهيم: السرد، والاعتراف، والهوية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ص 175، بتصرف.
- 7- المدونة، ص 67.
- 8- جورج ماي: السيرة الذاتية، ص 199
- 9- المرجع نفسه، ص 201¹
- 10- المرجع نفسه، ص 202.
- 11- عبد الله إبراهيم: السرد، والاعتراف، والهوية، ص 177.
- 12- فليب لوجون: السيرة الذاتية، ص 22.
- 13- المرجع نفسه، ص 39- 40.
- 14- عبد الله إبراهيم: السرد، والاعتراف، والهوية، ص 178.
- 15- المرجع السابق، ص 51.
- 16- المرجع نفسه، ص 52.
- 17- المدونة، ص 05.
- 18- المدونة، ص 74 _ 75.
- 19- المدونة، ص 173.
- 20- فليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ص 12.
- 21- لطيف زيتوني: الرواية العربية البنية وتحولات السرد، ص 60
- 22- د. محمد الداوي: صورة الأنا والآخر في السرد، سلسلة السرد العربي 6، دار رؤية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013، ص 175.
- 23- المدونة، ص 119 .
- 24- المدونة، ص 118.
- 25- د. محمد الداوي، صورة الأنا والآخر في السرد، ص 46.
- 26- المرجع نفسه، ص 176 .
- 27- المدونة، ص 16.
- 28- المدونة، ص 123.
- 29- محمد الداوي، صورة الأنا والآخر في السرد، ص 49 .

